يوسف حسين بكّار

أثر القرآن فى شعر حسّان بن ثابت

قُدِّر لحسان بن ثابت ان يشهد فى جاهليته الأيام التى كانت بين قبيلته الخزرج وقبيلة الأوس، وقُدِّر له ايضاً ان يتصل ببلاط الغساسنة فى الشام، والمناذرة فى العراق. فما ان ظهر الإسلام، و هاجر الرسول (ص) الى المدينة اسلمت الأوس والخزرج فأسلم حسّان وصار فى جملة الأنصار. لئن كان حسان لسان قبيلته فى الجاهلية، وعرفه بلاط الغساسنة مادحاً وبلاط المناذرة متوددآ، فان هذا كله لم يقم حائلاً فى ان يصبح شاعر الرسول الأول، يدافع عنه وعن دعوته بشعره مع نفر من زملائه[1]. لقد دافع حسّان بشعره عن الدين، ووقف فى وجه اعدائه وخصومه من كفار قريش وقفة شهد له الرسول الأكرم بها حين قال عن شعر حسّان فى الكفار انه «اشد عليهم من نضح النبل فى غلس الظلام».

شعر حسان كحياته، جاهلى واسلامى. الجاهلى لايكاد يختلف عن نمط الشعر الجاهلى المعروف، امّا الإسلامى فيتسم بسمات جديدة، من اهمها تأثر حسّان بالدين الاسلامى والقرآن الكريم فى الفاظه ومعانيه. قال[2]:

١ــ انظر: مقالنا «كعب بن مالك الانصارى واثر القرآن فى شعره» مجلة العرفان. العدد الاول. المجلد ٥٩. ايار ١٩٧١ م. ص١٤ــ٢٥.

٢ــ ديوان حسّان بن ثابت. ص١٣ (باهتمام عبدالرحمن البرقوقى). مما يجدر ذكره ان الدكتور محمد طاهر درويش الذى التفت الى شىء من تأثر حسان بالقرآن فى هذه الابيات، سجل عليه فيها مآخذ فقال «... ولكن الاحسان لايواتيه، ففى قوله «سيد الارباب» مالايرتاح اليه الذوق، ولا يتفق وروح الاسلام، ←

وَغَدوا علينا قادرين بأيدهم ... رُدّوا بغيظهم على الأعقاب[٣]
بهُبوب معصفةٍ تفرق جمعهُم ... و جنود ربك سيِّد الأرباب[٤]
و كَفى الإله المؤمنين قتالهُم ... و اثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففَرَّج عنهُم ... تنزيل نص مليكنا الوهاب
و اقَرَّ عين محمدٍ و صحابه ... و اذلَّ كل مكذبٍ مرتاب
علق الشقاء بقلبه فأرانه ... فى الكفر آخر هذه الأحقاب[٥]

ان تأثرالشاعر بالقرآن فی‌هذه‌الابيات واضح بيِّن. يقول‌تعالى «وغَدَوا على حرد قادرين» (القلم ٢٥)، ويقول «وردَّالله الذين كفروا بغيظهم‌لم ينالوا خيراً وكفى‌الله المؤمنين‌القتال، وكان‌الله قوياً عزيزاً» (الاحزاب ٢٥). اما «جنود ربك» فی‌البيت الثانی فأراد بهم‌الشاعر‌الملائكة، يقول تعالى «ياايهاالذين آمنوااذكروا نعمةالله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم‌تروها، وكان‌الله بما تعملون بصيرا» (الاحزاب٩). واماالبيت‌الرابع ففيه‌قبس من‌الآية‌الكريمة «وهوالذى ينزل‌الغيث من‌بعد ما قنطوا، وينشر رحمته، وهوالولى‌الحميد» (الشورى ٢٨)، كما ان فى قول‌الشاعر (علق‌الشقاء بقلبه فأرانه) قبساً من‌الآية‌الكريمة: «كَلّابل‌ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون» (المطففين ١٤).

وقال حسان فی‌هجاء ابی‌سفيان[٦]:

وانت زنيم نيط فى آل هاشم ... كمانيط خلف‌الراكب القدح الفرد[٧]

ففی هذااشارة الى قوله‌تعالى «مناعٍ للخير معتدٍ اثيم، عتلٍ بعد ذلك‌زنيم» (القلم ١٢ و١٣).

→

ولايناسب قدرالله تعالى، وقوله «تنزيل نص مليكناالوهاب» نظم لاتوام به، ولاجميل معنى، وليس فى العبارتين الاقلق او ضعف، وليس لهما من ميزة الا اقامةالوزن وتسويةالقافية...»
(حسّان‌بن ثابت. ص٤١٥ دارالمعارف بمصر. دون تاريخ).

٣ـ ايدهم: قوتهم.
٤ـ المعصفة: الريح‌الشديدة.
٥ـ ارانه: غطّى على قلبه.
٦ـ الديوان ١٦٠.
٧ـ تأثّرالشاعر فی‌المصراع‌الثانی من البيت بالحديث‌الشريف «لاتجعلونی كقدح‌الراكب» اى لا تؤخرونی فی‌الذكر. (انظر: حاشية ص١٦١ من‌ديوان حسّان).

وقال حسان فى بنى سُليم حين قدمهم الرسول(ص) يوم فتح مكه[٨]:

علام تُدعى[١] سليم و هى نازحة — امام قوم هُم آووا وهم نصروا[٩]
سمّاهم الله انصار النصرهم — دين الهدى وعَوان الحرب تستعر
وجاهدوا فى سبيل الله واعترفوا — للنائبات، فما خاموا وما ضجروا[١٠]

فى هذه الأبيات اثر من قوله تعالى «ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض...» (الانفال ٧٢)، ومن قوله «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم» (الأنفال ٧٤).

وقال حسان فى القصيدة السابقة نفسها:

وكم رددنا ببدرٍ، دون ما طلبوا — اهل النفاق، وفينا انزل الظفر

ففى قوله «وفينا انزل الظفر» اشارة الى قوله تعالى» ولقد نصركم الله ببدرٍ وانتم اذلّة، فاتقوا الله لعلّكم تشكرون» (آل عمران ١٢٣).

وقال حسان من ابيات اخرى فى رسول الله (ص)[١١]:

اميـر علينا، رسول المليـ — ـك احبب بذاك الينا اميراً
رسـول نصدّق ما جـاءه — من الوحى، كان سراجاً منيراً

فى هذين البيتين اثر الآية الكريمة «يا ايها النبى انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً» (الأحزاب ٤٥ـ٤٦).

اما قول حسان فى هجاء الحارث بن كعب المجاشعى ورهطه[١٢]:

كأنّكم خشبٌ جوف اسافلـه — مثقّب فيـه ارواح الأعاصيـر

ففيه قبس من الآية الكريمة «واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنّهم خشب مُسنّدة...» (المنافقون ٤).

٨ـ الديوان ١٩٩.

٩ـ نازحة: اى ان قبيلة سليم ليست من رسول الله كالانصار، بل هى بعيدة نازحة.

١٠ـ اعترفوا للنائبات: صبروا لها. فما خاموا: لم يجبنوا.

١١ـ الديوان ٢١٣.

١٢ـ الديوان ٢١٥.

وقال فی مدح‌الرسول[١٣] :

اکرم بقومٍ رسول الله شیعتهم اذا تفرقت الأهواء والشیع

اما سبحانه وتعالی فیقول «ان‌الذین فرّقوا دینهم وکانوا شیعاً لست منهم فی شیء...» (الانعام ١٥٩) .

وقال حسّان فی یوم بدر[١٤] :

و ذلك یا خیرالعباد بلاؤنا ومشهدنا فی‌الله والموت ناقع[١٥]

لناالقدم الأولی الیك، وخلفنا لأولنا فی طاعة الله تابع

و نعلم ان الملك لله وحده وان قضاءالله لا بدّ واقع

الأثرالقرآنی فی‌هذه‌الأبیات واضح، خاصّة فی‌قول‌الشاعر (ونعلم ان‌الملك لله وحده) . ففی‌القرآن‌الکریم آیات کثیرة بهذاالمعنی من‌مثل قوله تعالی «وقل الحمد لله الذی لم‌یتخذ ولداً ولم‌یکن له شریك فی‌الملك...» (الإسراء ١١١) ، و قوله «ولله ملك‌السموات والأرض...» (النور ٤٢)، وقوله «الملك یومئذٍ للحق‌الرحمن...» (الفرقان ٢٦) . اما قول حسّان (وان قضاءالله لابدّ واقع) ففیه اثر من قوله‌تعالی «انما توعدون لواقع» (المرسلات ٧) ، ومن قوله «ان عذاب ربك لواقع» (الطور ٧).

وقال حسّان فی یوم احُد[١٦] :

وحامی بنواالنجار فیه وضاربوا وما کان منهم، فی‌اللقاء جزوع

امام رسول‌الله لا یخذلونه لم ناصر من ربهم و شفیع

فی‌البیت‌الأخیر یتضح اثر قوله‌تعالی «... لیس لهم من‌دونه ولی ولا شفیع ، لعلهم یتقون» (الانعام ٥١)، وقوله «... ان تُبل نفس بما کسبت لیس لها من دون الله ولی ولا شفیع...» (الأنعام ٧٠) .

اما قول حسان فی رثاء خُبیب‌بن عدی الأنصاری[١٧] :

فاذهب خُبیبُ جزاك الله طیبةً وجنّةالخلد عندالحور فی‌الرُّفُق[١٨]

١٤ـ الدیوان ٢٥٤ .

١٥ـ ناقع: بالغ، قاتل .

١٦ـ الدیوان ٢٥٨

١٧ـ الدیوان ٢٩٠

١٨ـ الرفق: جماعةالمرافقین ، واراد رفاقة الصالحین .

مـاذا تقولون ان قال النبى لكـم حين المـلائكة الأبرار فى الأُفُـق[١٩]

ففيه اشارة الى قوله تعالى «والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية» (الحاقه ١٧).

كما ان فى قوله فى الحارث بن سويد بن الصامت الأنصارى[٢٠].

يا حـارِ فى سنةٍ من نوم اولكم ام كـنت ويحك مفتـرّاً بجبريل[٢١]

اثراً من الآية الكريمة «لا اله الا هـو الحى القيّوم، لاتأخذه سنة ولا نـوم...» (البقره ٢٥٥).

ومن اقوال حسّان المتأثرة بالقرآن[٢٢]:

فـلمّا اتانا رسـول المليـ ـك بالنور والحق بعـد الظلم

ركـنّا اليـه و لم نعصِه غداة اتانا من ارض الحَـرم

وقلنا: صدقت رسول المليك هَلُـمّ الينا و فيـنا اقـم

فنشهـد انك عنـد المليـ ـك ارسلت حقّاً بدين قَيِّم[٢٣]

هذه الأبيات متأثرة الى حد بعيد بآيات كثيرة من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى «... وشهدوا ان الرسول حق» (آل عمران ٨٦)، وقوله «ياايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق...» (النساء ١٦٩)، وقوله «فتوكـل على الله، انك على الحق المبين» (النمل ٧٩)، وقوله «هو الذى ارسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا» (الفتح ٢٨).

وقال حسان فى مدح الرسول (ص)، وهجاء ابى سفيان قبيل فتح مكه[٢٤]:

فإما تُعرضوا عنّا اعتمـرنا وكان الفتـح، وانكشف الغطـاء

و الا، فاصبروا لجـلاد يـومٍ يُعِـزّ الله فيـه من يشـاء

١٩ـ يريد بقوله «حين الملائكة الابرار فى الافق» يوم القيـامة.

٢٠ـ الديوان ٣٨١ ويقال ان الحارث كان مسلماً، فلما ارتد لحق بالكفار.

٢١ـ اراد بقوله «مفتـرّاً بجبريل»، اى ظننت ان القرآن لا ينزل فيك.

٢٢ـ الديوان ٣٧٥.

٢٣ـ القيـم: المستقيم.

٢٤ـ الديوان ٥.

و جبـريل رسول الله فيـنا و روح القُدس ليس لـه كفاء[۲۵]

يشيرالشاعر فی هذه‌الأبيات الی ذهاب‌الرسول‌الاكرم هو وعدد من‌المسلمين عام ٦ هـ لأداءالعمره، تحقيقاً لما رآه فی‌نومه‌انه يدخل مكّةمع صحبه لأداءالعمرة، وكان ذلك مقدمة لفتح مكة مصداقاً لما وعدالله رسوله والمسلمين. فضلاً عن‌هذا، فان فی‌الابيات اثراً من‌قوله تعالی «واخری تحبونها، نصر من‌الله وفتح قريب ، و بشرالمؤمنين» (الصف ۱۳)، وقوله «لقد كنت فی غفلة من هذا، فكشفنا عنـك غطاءَك...» (ق۲۲)، وقوله «... تعز من‌تشاء وتذل من‌تشاء...» (آل عمران ۲٦)

هذه امثلة من اثرالقرآن‌الكريم فی شعر حسان، وثمة غيرها، لا اری داعياً لذكرها بعد ان كشف عنهاالدكتور محمدطاهر درويش[۲٦]. ولعل هذه‌النماذج التی ذكرتها ان تأتی مكملة لما بدأه‌الدكتور درويش، وهی جميعها كافية للتدليل علی‌اثر القرآن‌الكبير فی شعر شاعرالإسلام الأول الذی قال له‌الرسول‌الأكرم حين اراد ان يهجوالقرشيين: «وكيف تصنع بی؟» ، فقال : «اسلك كما تسل‌الشعرة من‌العجين».

۲۵ـ كفـاء : نظير .

۲٦ـ راجع كتابه : حسان‌بن ثابت ٤۸۸ـ٤۹٤.